

مجموعة قصص :

- المهرجاني
- السلام عليكم
- رثبال

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح) مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

المهرجاني، السلام عليكم، رثبال - الرياض

٤٢ ص، ٢١٨١٤ سم

ردمك: ٩٩٦٠-٤٠-١٢-٣

١- القصص القصيرة العربية - السعودية ١- العنوان

ديوي ١٩٥٣، ٨١٣، ٢٢/١٨٢٩

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٩ ردمك: ٩٩٦٠-٤٠-١٢-٣

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٤٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



المهرجاني

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

« المَهْرَجَانِجِي ! »

يا لها من تسمية عجيبة !

تسمية تنطبق على مُسمَّاهَا كَالْقُفَّازِ المطاطي على يدِ
الجَرَّاحِ ! لا يدري أحدٌ من أطلقها على القادمِ الغريبِ إلى
مدينتنا الصغيرة، كما لا يدري أحدٌ من أين قدمَ الغريبُ .

كان الناس ينطقونها بلهجتهم الجبَلِيَّةِ « المَهْرَجَانِجِي »
بتشديد الجيمين فتأتي كدَقَّتِي صَنْجٍ قويتين متتاليتين تُعلنانِ
افتتاحَ مهرجانٍ ...

وكان هو يرتدي حُلَّةً بهلوانٍ أنيقةً فُزَحِيَّةَ الألوانِ، ويتغيَّرُ
غطاءُ رأسِهِ بتغيُّرِ الحُلَلِ البهلوانيةِ . وكان بمُفَرَّدِهِ جَوْقةٌ موسيقيةٌ
كاملةٌ؛ يعزفُ على البانجو وينفُخُ في هارمونيكا معلقةٍ على
صدرِهِ، ويدقُّ بِمِرْفَقَيْهِ على طبلٍ معلقٍ فوقَ ظهرِهِ، ويُطَبِّقُ
رُكْبَتَيْهِ على صَنْجٍ، ويجلجلُ النواقيسَ المحيطةَ بساقَيْهِ . كلُّ
ذلك في انسجامٍ كاملٍ، ودون خللٍ أو نَشَازٍ !

ظهر ذاتَ صيفٍ فَمَلَأَ الأَسْمَاعَ والأَبْصَارَ، وشغلَ الصغارَ
والكبارَ، وتبعَهُ الأَطْفَالُ في الأَزَقَّةِ والشوارعِ، يُقلِّدونَ رَقْصَاتِهِ،

وَيُنْشِدُونَ مَعَهُ عَلَى وَزْنِ الْأَغْنِيَةِ الشَّعْبِيَّةِ السُّورِيَةِ الْجَمِيلَةِ
(على عَصْفُورِيَّة):

المهرجاني... المهرجاني..
فِيرْدُ عَلَيْهِمُ هُوَ، وَيَدُهُ عَلَى أُذُنِهِ:
أَرْقُصْ وَأُغْنِيْ أَحْلَى الْأَغَانِي الشَّعْبِيَّةِ...
حتى صار رَدُّهُ هَذَا أَلْيَا يَصْدُرُ عَنْهُ دُونَ وَعْيٍ...

وكان يساعدهُ ابنٌ له في حوَالِي العاشِرَةِ، يناديه
«إِسْحَاقًا»، كان هو الآخرُ يَرْقُصُ رَقَصَاتِ الْعَجَرِ وَيَدُكُ الْأَرْضِ
بِوَرَزِيهِ الْخَشَبِيِّينَ دَكًّا قَوِيًّا مَنْسَجِمًا مَعَ الْإِيْقَاعَاتِ الَّتِي كَانَتْ
تَصْدُرُ عَنْ جَوْقَةِ أَبِيهِ الْفَرْدِيَّةِ، وَيَرْوَحُ فِي غَيْبُوبَةٍ مِنَ النُّشُوءِ
تُطْرِبُ الْجُمْهُورَ!

* * *

وَذَاتَ يَوْمٍ، وَالْمَهْرَجَانِجِي يَجُوبُ الْمَدِينَةَ، سَحْبَهُ مِنْ ذَيْلِ
سُتْرَتِهِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَأَدْخَلَهُ إِلَى دَارِ عُرْسٍ، فَاحْتَلَّ قَاعَتَهَا
الْوَاسِعَةَ، وَوَقَفَ يُحْيِي الْحَاضِرِينَ بِأَنْحَاءَاتِ أَنْيَقَةٍ. وَسَكَتَ
الْجَوْقُ الْمَوْسِيقِي، فَسَيَّطَرَ الْمَهْرَجَانِجِي عَلَى الْحَفْلِ بِعَزْفِهِ وَرَقْصِهِ
وَعِغْنَائِهِ.

كان يرقصُ البلديَّ القديمَ، والأوروبي والأمريكي الحديثَ، ويُغني بجميع اللغاتِ.

ومنذُ حضوره العُرسَ الأولَ، أصبح المهرجاني وابنه (صرعة) البلدِ الجديدةَ، وقاسماً مُشترَكاً بين جميع الأفراحِ. وصار هو، كُلُّما استدعي إلى عرسٍ، هيئاً له فُرجةٌ جديدةٌ.

وحين دعاهما كبيرُ أغنياءِ البلدِ لحفلِ زفافِ ابنته توقَّع الناسُ أن يأتيا بمفاجأةٍ مثيرةٍ جديدةٍ بمقامِ الداعي الكبير... وكذلك كان. فأتى حفلُ النساءِ أبدعَ المهرجاني وابنه في العزفِ والغناءِ لدرجةٍ كَسَفَتْ الأجواقَ الموسيقيةَ المتعددةَ وأخرستها.

وحضر الرجلُ الشريُّ للسلامِ على ابنته العروسِ، وهي «بارزة» على الكرسي المذهبِ في كاملِ زينتها، فحيَّاه المهرجاني بأنشودةٍ رائعةٍ أشعرتِ الرجلَ بنشوةٍ مجدِّ!

وما إن جلسَ أبو العروسِ بجانبِ ابنته المزيَّنةِ حتى خرجَ المهرجاني إلى القاعةِ، وطلب الصمتَ التامَ، ثم أنشدَ قصيدةً في وصفِ العروسِ، ومدَّحَ والديها بما عُرِفَ عنهما من فضائلَ،

أهمُّها جبلُ الذهبِ الذي يقَعُدُ عليه كبيرُ الأغنياءِ! فتأثَّرَ
الرجلُ وزوجتهُ حتَّى دمعت عيونُهُما...

وحينئذٍ خرج إسحاقُ يحملُ مِبخرتينِ مربوطتينِ بسلاسلٍ
من نُحاسٍ، وسلَّمَهُما للمهرجَانِجي، وجاء بأخريَيْنِ. ووقف
الاثنانِ يُلَوِّحانِ بالمباخرِ في الهواءِ ويتصايحانِ، ويُلَاعِبَانِ
بعضُهُما البعضَ، وكأنَّهُما في مُبارزةٍ! وتداخلتِ المباخرُ
بعضُها مع بعضٍ حتَّى خافتِ الحاضراتُ من تصادمِها أو
تشابكِها وتناثُرِ الجَمَرِ على الرؤوسِ والملابسِ الثمينةِ! وكانا،
وهما يتراقصانِ يُخْرِجانِ من حَلَقِيهِمَا أصواتًا كالزغاريدِ أو
شقشقةِ العصافيرِ، ويتضاحكانِ من أعماقِهِما، وكأنَّهُما
طفلانِ مُتَمَرِّدانِ لا يراقبُهُما أحدٌ!

وانفجرتِ القاعةُ بتصفيقِ الإعجابِ والزغاريدِ والهتافِ!
وانفصلَ الاثنانِ، وتوقفتِ المباخرُ عن الدورانِ برشاقةٍ وهدوءٍ،
وقد عبَقَ جوُّ القصرِ ببخورها الناعمِ المريحِ والمهدئِ للأعصابِ.
وعندها تناولَ إسحاقُ المكروفونَ، ورفعَ صوتهُ الرخيمَ بغناءِ
الآبياتِ التي أنشدَها أبوه. ورقَّ صوتهُ وحلاً وانخفضَ النورُ،

وَنَقُلْتُ الْجَفُونَ وَالرُّؤُوسُ، وَانْخَرَطَ الْجَمِيعُ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ...
أَقْفَلْتُ يَدٌ خَفِيَّةً بَابَ الْقَصْرِ لِمَدَّةٍ لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَمْ
دَامَتْ. وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ حَضَرَ أَهْلُ الْعَرِيسِ تَتَقَدَّمُهُمْ
جَوْقَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ. وَوَقَفَتْ الْكَادِيَلَاكُ الْبَيْضَاءُ بِبَابِ الْقَصْرِ،
وَخَرَجَ الْعَرِيسُ الشَّابُّ مُحَاطًا (بُوزَرَاتِهِ) وَأَصْدِقَائِهِ، وَدَخَلَ
الْقَصْرَ تَسْبِيحَهُ الشَّمْعُ وَزَغَارِيدُ الْبَنَاتِ...

وَفُوجِي الْجَمِيعُ بِمَشْهَدِ الْفَرَحِ النَّائِمِ! وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ
الْحَفْلُ قَدْ وَقَعَ ضَحِيَّةً تَسْمُمُ جَمَاعِي! وَلَكِنَّ النَّائِمَاتِ سُرْعَانَ
مَا أَخَذْنَ يَسْتَيْقِظْنَ مِنْ رُقَادِهِنَّ، وَيَوْقِظُ بَعْضُهُنَّ الْبَعْضَ.
وَكَانَ آخِرَ مَنْ اسْتَيْقِظَ الْمَهْرَجَانِجِيُّ وَابْنُهُ. اسْتَيْقِظَا عَلَى صُرَاخِ
امْرَأَةٍ سَمِينَةٍ اكْتَشَفَتْ ضِيَاعَ حَزَامِهَا الذَّهَبِيِّ الثَّمِينِ وَجَمِيعِ
قِطْعِ حُلَاهَا! وَانْتَبَهَ الْجَمِيعُ إِلَى أَنَّ الْمَصِيبَةَ كَانَتْ عَامَّةً، وَأَنَّ
حُلَى جَمِيعِ الْحَاضِرَاتِ قَدْ تَبَخَّرَتْ!
وَتَحَوَّلَ الْعَرْسُ إِلَى مَأْتَمٍ!

* * *

وحضر رجال الأمن فأقفلوا الأبواب وبحثوا في كل ركن،

فلم يعثروا للمسروق على أثر. ووقف عميد الشرطة يطمئن السيدات بأنه سبيذل قصارى جهده لإرجاع مسروقاتهن. وأخبر بأن المدينة مطوقة، والبحث جارٍ على قدم وساق. وكان العروسان وأهلهما أكثر الحاضرين حزنًا وانزعاجًا. ولاحظ المهرجاني ذلك، فقام وأمسك بالميكروفون في محاولة شجاعة لتغيير جو الحزن. فدعا الجميع إلى نسيان ما حدث، وزف العروس البريئة إلى عريسها بكل مظاهر البهجة والسرور. وبعد خطابه المؤثر، قفز إلى وسط القاعة بأغنية راقصة، وتبعه إسحاق يعزف على الدف ويرقص. وانضم الجوق الموسيقي إليهما وامتلات القاعة هرجًا ومرجًا، ووقف الأطفال يرقصون... ولكن بهجة العرس وسحره السابق كانا قد انطفأا. وزقت العروس قبل الموعد التقليدي.

* * *

وتأثر عميد الشرطة الشاب، (عمر النصراوي)، للموقف الإنساني النبيل الذي وقفه المهرجاني وابنه من العريس وذويهما، رغم أن الفتى ضاع منه هو الآخر خاتم نفيس.

وكان المهرجاني آخر من ودّع أهل العريسين أسفاً على ما حدث. وحين صافح إسحاق العميد بوجه حزين قال له العميد: «لا تحزن، وتأكد من أننا سنقبض السارق، ونردّ خاتمك إليك، والمسروق إلى أهله!»

وودّع المهرجاني داعياً له بالتوفيق، وطالباً منه الاحتفاظ بخاتم إسحاق حتى يعودا من جولتهما التي كانت ستبدأ في اليوم الموالي. وكتب له العميد ورقة مرور حتى يستطيع مغادرة المدينة دون توقيف حواجز التفتيش. وغادر المهرجاني وابنه المدينة فجر ذلك اليوم على متن سيارتهما القديمة التي كانت تسحب خلفها مقطورة يسكنان بها أينما ذهبا.

* * *

وتبين من التحقيق أن ثمن المسروق الإجمالي يربو عن مليون دولار!

وتعاون سكان المدينة مع رجال الأمن في البحث عن العصابة.

ومرّ أسبوع دون خبر. وكثرت التهامس، ثم الكلام والاتهام

حتى بلغ ذروته، ثم أخذ يَخِفُّ ويخبُو حتى تلاشى ... وبعد شهرٍ كان الجميعُ قد نسيه إلا العميدُ الشابُّ عُمَرُ النصراوي الذي بقي يَجْتَرُّ أَلَمَ الخيبةِ ومرارةِ الفشلِ .

وكان لغزُ القضيةِ الكبيرِ والمُحيرُ هو النومُ الجماعيُّ الذي غرقَ فيه جميعُ من حضروا العرسَ بدون استثناءٍ ! ومن إعادةِ الاستماعِ إلي عددٍ من أشرطةِ الاستجواباتِ أثارت شكوكهُ لعبةُ المباخرِ وعَبَقُ البخورِ الشرقيةِ النادرةِ، فقد كان آخرُ ما تذكَّره الحضورُ قبل الانخراطِ في النوم ...

* * *

ومرَّت سنةٌ كاملةٌ على الحادثِ . وفي أحدِ أيامِ الصيفِ التالي حلَّ بالمدينةِ رجلٌ أنيقٌ في حوَالِي الأربعين . نزلَ من سيارةٍ إيطاليةٍ شبابيةٍ حمراءَ لا تَتَنَاسَبُ مع سنِّه، وجاءَ لتحيةِ صاحبِ وكالةٍ عقاريةٍ محلِّية . ودَلَفَ الاثنانِ إلى المدينةِ القديمةِ، وفي طريقهما كان السمسارُ يَوْمِيٌّ إلى عددٍ من المنازلِ، ويردُّدُ معَ إيماءةِ رأسِهِ : « وهذه لكم كذلك ... »

وكان الرجلُ الأنيقُ يقفُ أمامَ بعضِ المنازلِ أكثرَ من وقوفه

على أخرى فيبتسم أو تدمع عيناه أو يُكشّر تكشيرة
شماتة...

وبينما هو في قمة نشوته، إذ خرجت جوقّة أطفالٍ من
أحد الدروب خلفهم، ورفعت أصواتها بغناءٍ نشيدٍ كانوا
يرددونه في الصيف الماضي، وهم يسبّرون خلف
المهرجاني... أخذوا يُنشدون بلحن «على عصفورية...»

المهرجاني! المهرجاني!

وفوجئ الأطفال بالرجل الأنيق يتوقّف، ويضع يده على
أذنه، ويردّ عليهم:

أرقص وأغني أحلى الأغاني الشعبية!

وفطن إلى حركته اللاإرادية، فتداركها متظاهراً بحكّ
أذنه... والتفت حواليّه ليتأكّد من أن أحداً لم يلاحظ حركته
الواشية! وبرّد الدم في عروقه حين رأى العميد على رأس الزقاق
ينظر إليه بعينين ثاقبتين كاشفتين، ويصفقُ بيديه للصغار
ليتفرقوا: «أذهبوا الآن!»

واستسلم المهرجاني، دون مقاومة...

وحكمت عليه المحكمةُ بخمسِ سنواتٍ سجنًا، وبإرجاعِ
المسروق، وإدخالِ إسحاقَ إلى مدرسةِ الفنونِ الجميلةِ لتعلّم
مهنةً تناسبُ مواهبه.



السلام عليكم

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

هَمَسَ «الصدِّيقُ أبو عَزَّةَ» لرفيقه «مُفضِّلُ الكِرْشاوي»:

— هل أنت متأكدٌ من أنه لا خطرٌ في هذه العَمَلِيةِ؟

فردَّ «مُفضِّلُ الكِرْشاوي» بصوتٍ مُحْشَرَجٍ مَبْحُوحٍ من مرضٍ تنفُّسِيٍّ أُصِيبَ به في السَّجْنِ من كَثْرَةِ تدخينِ أعقابِ السجائر:

— مائةٌ في المائةِ! اتركِ الأمرَ لي، وسترى ستصبحُ رجلاً غنياً، ويعفو اللهُ عنك من جَمْعِ الأَزْبَالِ والتنقيبِ في الأوساخ...

واحتجَّ «أبو عَزَّةَ» رافعاً صوته قليلاً:

— أنا لا أُنْقَبُ في الأَزْبَالِ! أنا موظَّفٌ مع البلدية. أُنْقَاضِي

أُجرتي في آخرِ الشهرِ كأيِّ مواطنٍ محترِفٍ!

وقاطعه «الكرشاوي» بصوته المبحوح:

— سَمَّ نفسك ما شئت! فأنت، في نظرِ الناسِ زَبَّالٌ! مجردُ

زبالٍ، فهمت؟

وحاولَ «أبو عَزَّةَ» الاحتجاجَ، ولكن «الكرشاوي» أَسَكَّتَهُ:

— ششش! سيارةٌ قادمةٌ.

وأخرج رأسه من بين أغصان الأجمة المتشابكة، وأطل
بحذرٍ على شارع «أبي رقرق» العريض المسمى باسم النهر
الفاصل بين مدينتي «سلا والرباط» العاصمة.

وملاً نور السيارة عليهما الأجمة المظلمة. ثم زال عنها
بنفس السرعة، فقال «مفضل الكرشاوي» مُحركاً رأسه:
- ليس هو.

وبحث في الأرض عن هراوته، وأمسك بها، وتأكد من أن
الجورب النسائي ما يزال فوق رأسه كطاقية يمكن إنزالها على
وجهه في لحظة الصفر.

كانت الساعة تقارب الثامنة والنصف من مساء ليلة
شتوية حالكة السواد، تُنذر سماءها الغائمة بوابلٍ شديدٍ.

وكانت الأجمة التي يختفيان فيها كثيفة الأغصان، مُعلّقة
بالجُرف المحادي لشارع «أبي رقرق» «بحي حسان» الهادئ
حيث يقع عددٌ من منازل السفراء التي تشرف على مصب
النهر المنفتح نحو المحيط.

وكان «الصدّيق بوعزة» يجلسُ القُرُفصاء بين الأغصان،

يُخْفِي ظِلَامُ اللَّيْلِ تَقَاسِيمَ وَجْهِهِ الْقَلْقُ . وَكَانَ يَتَسَاءَلُ دَاخِلَ
نَفْسِهِ عَنِ حِكْمَةِ مَا هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ . لَمْ يَكُنْ مُقْتَنِعًا بِمَا زَيَّنَهُ لَهُ
صَدِيقُ صَبَاهُ ، « مُفَضَّلُ الْكَرْشَاوِيِّ » مِنْ يُسْرِ الْعَمَلِيَّةِ ،
وَخُرُوجِهِمَا مِنْهَا سَالِمِينَ وَدُونَ اقْتِرَافِ جَرِيْمَةِ قَتْلِ أَوْ غَيْرِهَا .

وَلَمَسَ الْهَرَاوَةَ الْغَلِيظَةَ الَّتِي كَانَ يَنْوِي « مُفَضَّلُ الْكَرْشَاوِيِّ »
تَنْفِيذَ الْعَمَلِيَّةِ بِهَا عَلَى رَأْسِ الرَّجُلِ الْغَنِيِّ . وَتَخَيَّلَهَا تَنْزُلُ عَلَى
رَأْسِهِ هُوَ وَكَيْفَ سَيَكُونُ مَفْعُولُهَا !

وَتَرَدَّدَ كَثِيرًا ، وَحَاوَلَ التَّرَاجُعَ ، وَلَكِنْ قَبْضَةُ صَدِيقِهِ
« الْكَرْشَاوِيِّ » عَلَيْهِ كَانَتْ قَوِيَّةً ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ التَّخْلَصَ مِنْهَا . . .
لَمْ تَكُنْ قَبْضَةُ يَدٍ مَادِّيَّةً لِمُمُوسَةٍ ، بَقْدَرٍ مَا كَانَتْ سَيِّطَرَةً
مَغْنَاطِيْسِيَّةً يُمَارِسُهَا عَلَيْهِ صَدِيقُهُ مِنْذُ صَبَاهُمَا الْبَاكِرِ .

كَانَ كَلَامُهُ وَنَظَرَاتُهُ يُخَدِّرَانِهِ وَيَسْلُبَانِهِ كُلَّ إِرَادَةٍ أَوْ تَفَكُّيرٍ
حُرٍّ مُسْتَقِلٍّ . . . وَرَغْمَ أَنَّهُ انْفَصَلَ عَنْهُ عِدَّةُ سَنَوَاتٍ قِضَاهَا
« مُفَضَّلُ الْكَرْشَاوِيِّ » فِي السَّجُونِ وَالْهِيَامِ عَلَى وَجْهِهِ مَعَ
عَصَابَاتِ اللَّصُوصِ وَالْمَهْرَبِينَ وَمَرْوُجِي الْخُدْرَاتِ مِنْ سَكَّانِ
الْعَالَمِ التَّحْتِي الرَّهِيْبِ ، فَقَدْ بَقِيَتْ الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُمَا قَوِيَّةً تَخْضَعُ
لِقَوَالِبِ الصَّبَا الْبَعِيدِ .

وفي صباح ذلك اليوم، بينما كان الصديق يُفطِرُ بما يجودُ عليه به طبَّاخٌ تُكَنَّةٌ حرسِ الضريحِ من قهوةٍ وخبزٍ وزُبْدٍ، إذ وقف على رأسه «مفضل الكرشاوي». رأى ظله أولاً يحجبُ عنه شمسَ الصباحِ الباهتة، دون أن يسمَعَ وقعاً لحذائه؛ فقد كان التسلُّلُ والمفاجأةُ من طبيعته. ورفع «الصديق» عينيه فرأى صديقه القديمَ، فنهض من إقعائه لتحيتته وعناقه:

— أين كنت يا مفضلُ طولَ هذه السنين؟!

ولم يجب «مفضلُ»، بل قال:

— قل: «بازاً!» (*)

— بازاً! ولكن لماذا؟

— سنتان وأنا في السجن!

فضحك «الصديق»، وقال:

— ما تزالُ كما كنت! شقيّاً كثيرَ المزاح!

وذهب إلى الصندوقِ الذي يخزن فيه أدواتِ عمله وما يلقاه في القمامة من خُرْدَةٍ تصلحُ للبيع، وجاء بقطعتي ورقٍ

* بازٌ بالدارجة المغربية تعني مَرَحِيٌّ وتُعبَّرُ عن الإعجاب.

مَقْوًى فَرَشَهُمَا عَلَى سَوْرٍ زُهْرٍ الضَّرِيحِ الْقَصِيرِ، وَدَعَاهُ
لِلجُلُوسِ. فَجَلَسَ «مَفْضَلٌ» إِلَى جَانِبِهِ يَحْكِي لَهُ عَنْ سِنَوَاتِ
السَّجْنِ وَالْمَغَامِرَاتِ، وَيَقْتَسِمُ مَعَهُ إِفْطَارَهُ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَطَرُ قَدْ نَزَلَ بِغَزَارَةٍ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ، وَغَسَلَ
الْأَرْضَ حَتَّى أَصْحَبَتْ كَالْمَرَاةِ اللَّامِعَةِ، لَمْ يَبْقَ «لِلصَّدِّيقِ» مَا
يَفْعَلُهُ، وَجَلَسَ يُنَصِّتُ مَبْهُورًا إِلَى حِكَايَاتِ صَدِيقِهِ الْعَجِيبَةِ.
وَفِي النِّهَايَةِ تَنَهَّدَ «مَفْضَلُ الْكَرْشَاوِيِّ»، وَقَالَ:

— وَلَكِنِّي الْآنَ كَبُرْتُ وَعَقَلْتُ، وَأُرِيدُ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ كُلِّ
هَذَا، وَأَتَزَوَّجَ وَاسْتَقِرَّ.

وَأَعْجَبَ «الصَّدِّيقُ» كَلَامَهُ هَذَا، فَسَأَلَ مَتَهَلِّلَ الْوَجْهِ:

— صَحِيحٌ؟

— صَحِيحٌ، وَاللَّهِ الْعَظِيمِ! لَقَدْ انْكَسَرَتْ عَلَى رَأْسِي
الْقُدُورُ، وَلَمْ أَعُدْ أُحْتَمِلُ حَيَاةَ الصَّعْلَكَةِ وَالسَّجُونِ وَالْفِرَارِ مِنْ
وَجْهِ الْعَدَالَةِ.

— وَلَكِنْ، بِمَاذَا سَتَعِيشُ؟ هَلْ عَثَرْتَ عَلَى شُغْلٍ؟

— شُغْلٌ!؟ لَا. أَنَا لَا أَصْلُحُ لِلشُّغْلِ، وَلَا الشُّغْلُ يَصْلُحُ لِي.

وبان الاستغرابُ على وجهِ «الصدِّيق» :

– وكيف تنوي أن تكسبَ قوتَ يومك؟

– لذلك جئتُك، عندي خطةٌ في غايةِ السهولة، ونجاحها

مضمون. سمعتها من أحدِ اللصوصِ الكبارِ في السجنِ،

أوهمتهُ أنني لَنْ أُخرجَ إلا بعدَ سنواتٍ من خروجهِ، فأسرَّ إليَّ

بها في وقتٍ من أوقاتِ ضِعْفِهِ.

ونهض «مفضلُ الكرشاوي» من مجلسِهِ، ووقفَ ينظرُ في

كُلِّ اتجاهٍ ليتأكدَ من أن أحداً لا يسمعهُما، ثم عادَ واقتربَ من

«الصدِّيق» وأخذَ يهمسُ إليه بصوتهِ المحسَّرَجِ :

– هناك رجلٌ غنيٌّ جداً يحملُ إلى بيتهِ في آخرِ يومٍ من

كُلِّ شهرٍ حقيبةً تحتوي على مائةِ ألفِ درهمٍ ليدفعَ أُجورَ عمَّالِهِ

الكثيرين في البناء. تصوِّرْ مائةَ ألفِ درهمٍ! عشرةَ ملايينَ

سنستيم! إذا اقتسمناها أنا وأنت أمكننا أن نبدأَ أيَّ مشروعٍ

نعيشُ منه في سعادةٍ وهناءٍ! ولن يضرَّ ذلكَ صاحبها الغنيَّ في

شيءٍ.

وحركَ «الصدِّيقُ» رأسَه في خيبةٍ أملٍ، فسأله «مفضلُ» :

— مالك؟

— ألم تقل لي إنك تُبْتَ عن هذه الأعمال؟!

فاقترب «مفضل» منه حتى التصقَ به، والتفتَ يمنةً ويسرةً، ثم ركَّزَ عينيه النفاذتين في عيني «الصدِّيق»، وأخذ يهمسُ له مُنَوِّماً:

— طبعاً تُبْتَ توبةً نصوحاً! ولن أعودَ إلى مخالطةِ اللصوصِ والمجرمين وقُطَاعِ الطرقِ؛ لذلك جئتُ إليك أنتَ بالذاتِ، صديقِ الصِّبَا، والناصحِ الأمينِ وأقسمُ لك برأسِ أُمِّي أن هذه ستكون آخرَ عمليةٍ، ولن يُصابَ فيها أحدٌ بسوءٍ وسنعيشُ نحن، أنا وأنتَ في سعادةٍ وهناءٍ دائمين، ونَحُجُّ بيتَ الله، ونستغفرُه من ذنوبنا.

تفاصيلُ المشروعِ التجاري عِنْدِي. سوف تعرفُها بعد أن تستلمَ نصيبَكَ من الغنيمةِ السهلةِ. فَضَعْ كاملَ ثقتك في صديق طفولتِكَ وصِباكَ! هل سبق أن خدعتكَ أو كذبتَ عليك في الماضي؟ فهل ستكونُ شريكِي وتُنقِذُنِي من عشرةِ السوءِ، أم سترفضُ طلبي وترميني في أحضانهم؟

ووجد «الصدِّيقُ» نفسه يحركُ رأسَهُ موافقاً على المشروع،
وقد غاب وعيُهُ، وغرقَ في سُباتٍ مغناطيسي عميق...

وسأله عن الرجل الغني، فأجابَه «مفضل الكرشاوي» بأنه
تعلم بالتَّجربةِ أنه من الأحسنِ ألا يعرفَ عن ضحاياه شيئاً
حتى لا يُحسُّ نحوهم بعطفٍ، وأنه يجبُ اعتبارُهم مجردَ
أرقامٍ أو جيوبٍ تحملُ محافظَ نقودٍ. أو أكياسَ نقودٍ متحركةٍ،
حتى لا يشعرَ بإثمٍ أو توبيخٍ ضميرٍ!

وفوجئَ الصديق حين سألَهُ عن يوم تنفيذ العملية فقال
له:

- اليوم.

- اليوم؟!!

- نعم اليوم آخرُ يومٍ في الشهر. وإذا أخطأناه وجب علينا
انتظارُ شهرٍ كاملٍ! ومن يضمنُ ما سيحدثُ في شهرٍ لي أو
لك؟

كان «مفضل الكرشاوي» يريدُ أن يدُقَّ الحديدَ وهو
ساخنٌ؛ لذلك انتظرَ يومَ تنفيذِ الخطَّةِ بالذاتِ ليأتي إلى

صديقه. فهو يعرف أنه إذا طالت مدة الانتظار بردت قدماً
«الصديق» وزال عنه مفعول التنويم المغناطيسي...

ولاح ضوء سيارة قادمة، فأمسك «مفضل» بالهراوة،
وتنهياً للانقضاض والتفت إلى «الصديق» قائلاً:

— تذكر ما قلته لك؛ أنت اخطف الحقيبة واهرب! لا

تنتظرنني! واترك الرجل لي، ولا تلتفت بالمرّة، فهمت؟

وحرك «الصديق» رأسه فاهماً.

وأبطأت السيارة سيرها. وأومض ضوء إشارتها في اتجاه
الشارع الذي يُقيم به الرجل الغني، فوثب الاثنان من
مخبئيهما، وعبر الصديق إلى الجانب الآخر، وتسلا تحت
الأشجار إلى الشارع الذي وقفت فيه السيارة. ووقف كل
منهما خلف شجرة.

وفوجئ «الصديق بوعزة» حين رأى أن الرجل الذي يخرج
من السيارة هو «الحاج الطيب». فتحرك بسرعة نحو صديقه
«مفضل»، وأمسك بذراعه هامساً في حسرة واستعجال:

— انتظر!

— لماذا؟

— إنني أعرفُ ذلك الرجل. إِنَّهُ «الحاج الطيب»!

ولكن «مفضل الكرشاوي» كان، قد انقَضَ نفسانياً، على الرجل، فلم يعدْ هناك مجالٌ لإرجاعه! كان كالْبَبْرِ الذي تَرْبُصُ لفريستيه على جانب الغدير حتى صارت داخلَ مسافة انقضاذه، ومَلأت خياشِمُهُ رائحتها الشهية، بحيث أصبح مستحيلاً إقناعه بالتراجع، إلا بقوةٍ أشدَّ من قوته!

أمسك «الصدِّيق» بذراعه فوجدَها في صلابَةِ الحديد! ونظر إلى عينيه فإذا هو مركَّزٌ لا يرمُشُ على الرجل الذي كان يخرجُ من سيارته بهُدوءٍ وينحني ليُخرج الحقيبة من تحت الكرسي.

وفي لحظةٍ بعينها انطلقَ مُفْضَلٌ كالوحشِ الكاسرِ شاهراً الهراوةَ ليهويَ بها على رأسِ الرجل! ولكنَّ «الصدِّيق» جرى خلفه فَلَحِقَ به والهراوةُ في طريقها إلى رأسِ «الحاج الطيب»، فارتَمى عليه ودفعه من الخلفِ دفعةً قويةً أفقَدته توازنه، فوقع على وجهه آخذاً الحاجَّ معه إلى الأرض!

ورأتِ الخادِمُ التي فتحت له بابَ المَرَّابِ ما كان يحدثُ
فبدأت تصيحُ وتستغيثُ ! وحاولَ «مفضل» الارتقاءَ على
الحقيبةِ والفرارَ بها، ولكن «الصدِّيقَ» أمسك بذراعيهِ من
الخلفِ، ونزلَ فوقه بكاملِ ثِقَلِهِ، صائحاً في «الحاجِّ الطيب» :
- اهْرُبْ ! اهْرُبْ يا سيدي الحاجُّ !

وخرج الجيرانُ، وتجمَّعوا عليهم، وأمسكوا «بمفضل
الكرشاوي» الذي أخذ يصرخُ بين أيديهم :

-امسكوا به هو كذلك ! إنه معي ! نحن في العملية معاً !
ولم يصدِّقه أحدٌ . فقد كانوا جميعاً يعرفونَ الصدِّيقَ
بوعزة .

ووصلت سيارةُ الشرطةِ فأخذت الاثنينِ إلى المركزِ . أخذتِ
«الصدِّيقَ» كشاهد .

واعترف «الصدِّيقُ بوعزة» لعميدِ الشرطةِ بأنه كان شريكَ
«مفضل الكرشاوي» في خُطْبَتِهِ، وأنه ندِمَ على ما فعل، وأخذ
يبكي ...

ونظرَ إليه العميدُ غيرَ مصدِّقٍ وسأل :

– لماذا غيّرت رأيك في آخر لحظة؟

– لأنني لم أكن أعرفُ أن الضحية هو «الحاجُّ الطيب».

– هل تعرفُ «الحاجَّ الطيب»؟

– نعم؛ فأنا زبالُ الحي، وأراه كلَّ صباحٍ في ملابسِ

الرياضة، أو راكباً حصانه.

– هذا كلُّ ما تعرفُهُ عنه؟

– نعم.

– هل كان يعطيك شيئاً من حين لآخر؟

– لا، أبداً...

– هل كانت عائلته تُخرجُ لك طعاماً أو ملابسَ قديمةً

مثلاً؟

– لا، ذلك يستأثرُ به زبالو المنازل. أنا زبال الشارع فقط.

ولا أطرُقُ أبوابَ المنازل.

– فلماذا دافعت عنه إذن؟ وكنت ستنالُ من العمليةِ ما

يكفي لإراحتكَ زمناً طويلاً من عملك الشاقِّ؟

– لا أدري.

وفكّر قليلاً، ومسح دموعه بظهر يده، وأضاف :
- ربّما لأنه أعطاني شيئاً أكثر من المال والطعام والملابس
المستعملة .

- مثل ماذا؟

ونظر «الصدّيق» إلى الأرض مفكراً ثم قال ببطءٍ
وبكلماتٍ مقطعة :

- أعطاني إنسانيتي وحفِظَ لي كرامتي . كان يُشعِرُني
بأنني إنسانٌ لا فرقَ بيني وبينه، رغمَ غناه العريضُ وفقري
الشديد . كان يرفعُني إلى مستواه، فأشعرُ أنا الآخر وكأني
أمتطي سهوةَ جوادٍ مطهّمٍ مثل جواده، وارتدي بذلةَ ركوبه
الأنيقة، وأملك الدنيا وما فيها !

- كيف؟

- كان كلّما مرّ بي، وأنا أكنسُ الأرض، يقول لي :
«السلام عليكم!»



وئبال

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي



حين اجتمعت لجنة تكريم الشيخ الأستاذ محمد
عبد الهادي، معلّم الأجيال، طُرح للمناقشة اسمُ رِئالِ
العبدى، كأحد تلاميذه المتفوقين المرشحين للحديث عنه في
حفلي التكريم. واعترض بعض أعضاء اللجنة المحافظين على
ترشيحه، بدعوى أنه حادُّ المزاج وعصبيٌ غريبُ الأطوار، وقد
يُفسدُ الحفل!

ودافع عنه صديقُ صباه الأستاذ مختارُ القرشي، رئيسُ
اللجنة، بأنَّ الأستاذَ المكرّم يعرف ذلك، فقد كان معلّمه،
وكان معجباً بكائه الحادِّ ومواهبه الأدبية الاستثنائية وصراحته
القاسية أحياناً. إلى جانب أن الشيخَ المكرّم يتوقَّعُ أن يكونَ
تلميذه المشاغِبُ القديم من بين المتكلمين في حفلِ تكريمه.
وسَيْخِبُ أمله إذا لم يُدلِّ بشهادته.

وأقنع اللجنة بأنه سيأخذُ عليه تعهداً بأن يكونَ كريماً مع
معلّمه الكبير السنِّ والمقام، ويلتزم بأصول اللبّاقة واللبّاقة.

كان رِئالُ العبدى طويلاً، نحيلاً، لامع العينين في
جُحوظٍ خفيفٍ يعطيه قوّة. وكان كثيرَ القراءة والتفكير، قليل

الإنتاج الأدبي . يكتُبُ شعراً سياسياً واجتماعياً حاداً كمزاجه،
خارجاً عن مَسَارِ التفكير العام . ولم يكن يُطْلَعُ على ما يكتُبُهُ
إلا أصدقاءه الحميمين القليلين، ومن بينهم صديقُ صباه ومدير
مدرستِهِ، رئيسُ الجَنَةِ، المختارُ القُرْشي الذي كان يحبُّه بدون
قيدٍ ولا شرطٍ، ويحتَمِلُ ثقلَباتِ مزاجِهِ وثوراتِهِ العنيفةَ على
أنها ضريبةُ العبقريةِ .

ومن شطحاتِ رِئالِ العبدِ العجيبةِ أنه قدَّمَ مرةً إلى
القُرشي استقالته من التعليم في مدرستِهِ، بدعوى أنه غيرُ
جديرٍ بتشكيلِ عقولِ الأجيالِ ! وأصرَّ على الاستقالة، وهو لا
يملكُ خبزَ عِشائِهِ وتظاهرَ صديقِهِ بقبولِها، بعد فشلِ جميعِ
محاولاتِ إقناعِهِ بالعدولِ عنها . وفي آخرِ الشهرِ حبَسَ عنه
أجرَتَهُ حتى جاء ليقترضَ منه مبلغاً يقتاتُ منه، فسَلَّمَهُ المديرُ
حوالته قائلاً :

« رفضتِ الوزارةُ استقالَتَكَ، ونقلتَكَ إلى الإدارة . »

وقبِلَ رِئالُ المشاركةِ في حفلِ التكرِيمِ، بشرطِ ألاَّ يقدِّمَ
كلمتَهُ مكتوبةً إلى اللجنة، وأن يلقِيها ارتجالاً، فوافق المديرُ
على مَضَضٍ ...

وجاء يومُ الحفلِ الموعودُ، وكان في قصرٍ من قصورِ المدينةِ القديمةِ الفاخرةِ .

ودخل الشيخُ المكرَّمُ ملفوفاً في البياضِ من عمامتهِ إلى جواربهِ وبلغتهِ . واستقبلتهُ عاصفةٌ من التصفيقِ، وهو لاهٍ عنها بالحديثِ إلى القرشيِّ، رئيسِ اللجنةِ، كمن اعتادَ على التكريمِ والتشريفِ، وعلى أن يكونَ بؤرةَ الاهتمامِ حيثُما حلَّ وارتحلَ ...

وبعد الافتتاحِ بآياتٍ من الذكرِ الحكيمِ، وكلمةِ رئيسِ اللجنةِ، وبرقياتِ كبارِ المتغيبينِ «لأسبابِ قاهرةٍ»، وكلماتِ كبارِ الرسميينِ، جاء دورُ رئبالِ العبدِي، فوقفَ يتصفَّحُ الوجوهَ وجهاً وجهاً، ويبتسمُ ابتسامتهِ الغامضةَ . وساد الصمتُ والتوقُّعُ، وانضمَّ المنظَّمونَ والمكلَّفونَ بتوزيعِ الشاي والحلواءِ إلى جمهورِ المنصتينِ .

وأخيراً نطقَ رئبالُ العبدِي قائلاً، دونِ مقدماتٍ :

«مرحباً بكم في نادي المعاقين! في حفلِ تَعْرِيةِ صانعِ

العاهاتِ!»

وارتجَّتِ القاعةُ! وسرَى في الحاضرين تيارٌ عنيفٌ... وهمُّ
أحدُ الحاضرين بالوقوفِ لإجلالِ المتكلِّمِ الوقحِ، فأوماً إليه
الشيخُ المكرَّمُ بالآ يفعلَ.

وانتظرَ المتكلِّمُ حتى امتصَّتِ القاعةُ صدمته الأولى، وهو
مبتسمٌ ابتسامةً أشبه ما تكونُ بالتكشيرةِ عن الأنيابِ، ثم
قال:

«تصلُّني من القاعةِ ذبذباتُ استنكارٍ لما قلتُ. أنا لم أجيءُ
لأفسدَ هذا الحفلَ، بل جئتُ لأصحِّحَ مساره. جئتُ لأقولَ
كلمةً حقُّ أعرفُ أنها لن تُقالَ في أعراسِ المحاباةِ والمداورةِ
والمجاملةِ والنفاقِ...»

نطقَ الكلمةَ الأخيرةَ بصوتٍ عالٍ، وبضربةٍ من قبضتهِ
المتشنِّجةِ على المنصةِ ذلَّقتُ كأسَ الماءِ.

ووقفَ رجلٌ في حوَالِي الخسَمينِ في الصفِّ الأولِ
لينصَرِفَ، فصاحَ فيه رُئبالٌ، كما يصيحُ في أحدِ تلاميذهِ
الصغارِ: «اقعدا!» فقعدَ الرجلُ صاغراً، وعادَ المتكلِّمُ إلى
جمهوره المتهيِّجِ:

« جئتُ لأقولَ الحقَّ الذي أنتم في أشدِّ الحاجةِ إليه ! والحقُّ كما تقولون لا يقوله إلا الصبيُّ أو الأحمقُ ! وأنا، كما تعلمون كِلَاهُما، وهما معاً قلتُ عن شيخنا المكرَّم - والله يعلمُ أنه أَحَبُّ إليَّ من أبنائه إليه - إنه صانعُ عاهاتٍ ! وكيف يصنعُ العاهاتِ رجلٌ كان وراءَ مبدإِ تعريبِ التعليمِ وتعميمِهِ وإلزامِهِ ؟! المعلمُ الأولُ بامتياز ! الحقيقةُ، أيها السادةُ المعاقون أن ذلك المبدأَ العظيمَ الذي بدا لنا، منذ ما يزيدُ على ثلاثينَ سنةً، أنه لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، هو الذي خَرَّبَ التعليمَ ببِلادِنَا، وجعل من جيلِنَا هذا المُشْرِفِ على التقاعدِ جيلاً من المُعاقين، ليس جسدياً، بطبيعة الحال، ولكن فكرياً وتربوياً وثقافياً واجتماعياً !

« وكلنا يذكرُ كيف تحمَّس شيخُنَا الجليلُ لمبدئه العظيم، وكيف جَرَفْنَا حماسه، ونحن شبابٌ، وتجددت القُوَى الحية وراءه، لنذكرَ جميعاً، وبعد رجوع طلائع الارتياحِ الأولى، أن تحقيقَه بعيدُ المنال ! كانت الأميةُ مُطبَّقةً على البلادِ، والأطرُ الكفأةُ دونها خَرَطُ القَتَادِ !

«وهنا كان ينبغي، بل يجبُ على شيخنا المكرم الذي كان في رُبعانِ رُشدِه أن يتحلَّى بفضيلةِ الشجاعةِ الأدبية، ويقتدي بسيدِ الأنبياءِ الذي كان يدرُّسنا سيرته، فتدمعُ عيناه، وترتعشُ يدها وشفَّاه وببكي فيُبكيها ونحنُ صِغار! كان عليه أن يقتديَ بقوله، عليه السلام: «إنَّ الرائدَ لا يكذبُ أهله. والله لو كذبتُ الناسَ جميعاً ما كذبتُكم!»

«كان عليه أن يكفَّ عن الرُكُضِ أمامنا، ويرفَعَ يدهُ، ويوقِفَ القطيعَ الهائلَ الراكضَ وراءه بثقةٍ عمياءَ، ويُصارحه بالحقيقةِ المرَّة: «لقد أخطأنا الطريقَ! فلنَعُدْ من حيثُ بدأنا!»

ويصرفَ الجميعَ إلى أعمالِهِم السابقة، ثم يختارُ نخبةً من الشبابِ الذكي المتعلِّم، ويجعلُ منها خميرةً نظيفةً لتكوينِ المكوِّنين من المربين والمعلمين والأطرِ الإداريةِ الكفَّة... لا يهمُّ أن يأخذَ ذلكَ عشرين سنةً أو ثلاثين، ولا حتى أربعين! فلأنَّ نسيرَ على طريقِ الصوابِ مُتأخِّرين خيرٌ من أن ندخلَ الضَّلالَ مبكرين!»

وصفَّقَ أحدُ الحاضرين، ولم يتبعه إلا ثلاثة أو أربعة،

أُسكتتهم نظراتُ الآخرين... واستأنفَ رُئبالُ، غيرَ عابئٍ
ببرودةِ القاعةِ:

«ولكن شيخنا العزيز آثر الهروبَ إلى الأمام! فجمع كلَّ
من هبَّ ودبَّ ممن يستطيعون فكَّ الخطِّ أو رسمَ الأرقامِ من
العاطلين وصِغارِ التجارِ والحرفيين الفاشلين، وملأَ بهم المدارسُ،
دون أدنى تدريبٍ أو اختبارٍ! وبطبقةٍ من نفسِ المستوى ملأَ
إدارةَ التعليمِ، تركَ لهم تخطيطَ البرامجِ ووضعَ المبادئِ والأسسِ
التربوية لبناءِ جيلٍ ما بعد الاستقلالِ! فماذا كانتِ الحصيَّةُ؟
جيلٌ من المعاقين المساكين! جيلٌ عشَّشتُ في عقولهم الفوضى
والخرافةُ والجهلُ وانعدامُ الثقة بالنفسِ! هذا الجيلُ هو الذي
عُهِدَ إليه بتكوينِ الجيلِ الذي جاءَ بعده! وهكذا أَصْبَحَ كلُّ
جيلٍ يَرِثُ جهلَ سابقه وفراغَهُ، ويورثُهما لِلآحقهِ!

«وإذا كان لنا أن نلتَمِسَ العزاءَ في شيءٍ، فإننا لسنا وحدنا
في هذه المحنةِ! والمُصيبَةُ إذا عَمَّتْ هانت. فالظاهرُ أن نُسَخَّا
طبقَ الأصلِ من مكرِّمنا كانت تعملُ بنفسِ العقليةِ والحماسِ
في جميعِ أرجاءِ الوطنِ العربي! فإذا مَسَحْتُمْ بأبصاركم أَفُقَ

الأمّة العربية، ولم تروا إلا الخلافات والحروب والحرائق والخراب،
فلا تستغربوا! فإنّ العقول والنفوس الشوهاء لا يمكن أن تبني
مجتمعات سوية سليمة! »

وسكت قليلاً وهو يلهث، وكأنّه يحمل عبئاً ثقيلاً،
وجال بعينه في الوجوه وقد ازداد الصمت عمقاً في القاعة،
وظهرت علامات الجدّ على الوجوه، ثم قال :

« إنني أجولُ بعينيّ عقلي في هذه الوجوه الشفافة، فلا
أرى إلا أعمى أو أعمى أو أبكم أو كسيحاً أو مريضاً أو خائفاً
أو حاقداً أو جاهلاً أو قليل تربية ولباقة وذوق، مُختلّ العقل
مثلي! »

وأمسك رأسه بين يديه، وكأنّه يخشى عليه أن ينفجر،
وصاح صيحة اهتزت لها القاعة :

« واضيعة هذا الجيل! وواحسرتاه! وواشقوتاه! »
وانهمرت دموعه غزيراً. وهمّ القرشيّ بالنهوض، فأجلسه
الشيخ، ونهض هو إلى المنصة حيث أمسك برئبال من كتفيه،
وضمّه إليه، وقد لمعت الدموع على خديّه وهي تُسقي لحيته
الفضيّة.

وأخرج الموقفُ الجمهورَ المتوترَ، واغرورقت عُيُونُ بعضهم بالدموعِ، وعلَّت زفراتهم، فصَفَّقَ أَحَدُ الحاضرين بحماسٍ، رافعاً عقيرته بالتكبير:

«الله أكبر! الله أكبر! لله درك! لله درك!»

وتبعه الجمهورُ بالتصفيقِ منقُساً عن كِبَتِهِ وتوترِهِ.

وأخرج الشيخُ المحتفى به منديلَه الضخمَ المشهورَ، فمسحَ عينيه وأنفَه بصوتٍ عالٍ ناشفٍ، وأمسكَ بالبوقِ، وقال مخاطباً تلميذه القديمَ رثيالَ العبدي:

«لا فُضُّ فُوكَ، يا ولدي رثيالُ! مازِلت كالعهدِ بك، رثيالاً صنديداً، لا تخشىَ في الحقِّ لومةَ لائمٍ! ولن ألوْمَكَ على كلمةٍ مما قُلْتَه! سألوْمُكَ فقط على شيءٍ واحدٍ...»

وتعلَّقتِ الأسماعُ والعيونُ بقمِ الشيخِ، فقال:

«سألوْمُكَ على أنكَ سبقْتَنِي، وقُلْتَ كُلُّ ما كنتَ سأقولُه، وتركتَنِي بلا خطابٍ! ولو لم أكن كُتبتُ خطابي أو اعترافي، هذا الصباحَ، وبقيتُ نسختُه الوحيدةُ في جيبِي حتى الآنَ. لقلتُ سَرَقْتَه مِنِّي!»

وأخرج الخطابَ من جيبه، ومدّه إلى رئيسِ اللجنة قائلاً:
« خذهُ الآن، فقد كفاني رُئبال مشقّةَ إلقائه. وكلُّ ما
أتأسّفُ عليه هو أنني لم أملكِ الشجاعةَ لكتابته وإلقائه أو
نشره قبلَ اليوم، وأشكركم على تكريمي هذا... والحقيقة أن
أعظمَ تكريمَ اعتزُّ به، هو أن يكونَ من بين تلاميذي رجلٌ مثلُ
رُئبال. رجلٌ احتقر الدنيا وصغُرَتْ في عينيه عِظائِمها، وعاشَ
للحقِّ والحقيقة. أنا أشعرُ أن حياتي لم تذهبْ سُدًى. وأنَّ في
الإمكانِ البدءَ من جديدٍ، ومن نقطةٍ نظيفةٍ اسمُها رُئبالُ
العبدِ!

وصفق الحضورُ بحرارةٍ والشيخُ يحاولُ إسكاتهم بيدهِ
زاهداً في إعجابهم، والتفتَ إلى رُئبالِ الذي كان قد عادَ إلى
مقعده، ودفَنَ وجهه بين يديه، وقال له:

« لقد كنت يا رُئبالُ دائماً ضميمَ جِيلِكَ الحيِّ! وما دام
أمثالك بيننا، فلا خوفَ على أُمّتنا من الضياع... »